أي الأكف تباري الغيث

يمدح أخاه أبا عبادة:

[البسيط]

مـا الـشَّـوْقُ مُـقْـتَـنِـعـاً مِـنِّـي بـذا الـكَـمَـدِ
حَـتَّـى أكُـونَ بِـلَا قَـلْـبٍ وَلَا كَـبِـدِ[١]
وَلا الـدِّيَـارُ الَّـتِـي كـانَ الْـحَـبِـيـبُ بـهَـا
تَـشْـكُـو إلَـيَّ وَلا أَشْـكُـو إلَـى أَحَـدِ[٢]
مـا زالَ كُـلُّ هَـزِيـم الـوَدْقِ يُـنْـجِـلُـهَـا
وَالـسُّـقْـمُ يُـنْـجِـلُـنِي حَـتَّـى حَـكَـتْ جَـسَـدِي[٣]
وكُـلَّـمَـا فـاضَ دَمْـعِـي غَـاضَ مُـصْـطَـبَـرِي
كـأنَّ مَـا سَـالَ مِـنْ جَـفْـنَـيَّ مِـنْ جَـلَـدِي[٤]
فـأيـن مِـنْ زَفَـرَاتِـي مَـنْ كَـلِـفْـتُ بِـهِ
وَأَيْـنَ مِـنْـكَ ابْـنَ يَـحْـيَـى صَـوْلَـةُ الأسَـدِ[٥]

---

(١) الكمد: الحزن المكتوم. يُعاني الشاعر شوقاً عظيماً إلى أحبَّته، ومع ذلك فإنه لا يكفيه بما هو عليه بل إنه يودّ لو يُحرق كبده ويسلب منه عقله حتى يذهب به إلى حالة من الجنون.

(٢) لقد توقّفت لغة الكلام؛ فالديار صمّاء خرساء لا تُحسن نطقاً ولا تعي جواباً لما يُخاطبها به، وما يزيد ألم الشاعر أنه يُخفي ألمه وشوقه فلا يبيح لأحد بسرّ قلبه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. هزيم الرعد: صوته. الودق: المطر المنهمر. نحل: أهزل. المشاركة الوجدانية بين ديار الحبيبة وبين الشاعر، فقد أحالتها الأمطار العنيفة عن عهدها، فبدت تعاني الهزال والضعف كما حلّ بالشاعر من سوء الحال حتى نزل بجسده الهزال والضعف.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. فاض: زاد وطمى. غاض: نقص. المصطبر: الصبر. الجلد: الاحتمال. ولقد ارتبط عدم صبر الشاعر بفيضان دموعه التي تغطّي وجنتيه فتقضي على ما بقي من قوة الاحتمال لديه فينتشي شوقه.

(٥) الزفرات: الأنفاس الحارَّة. كلف: تعلّق قلبه. أين تفيد الاستبعاد. لقد بعُدت الشُّقّة بين الشاعر وبين من هام بها، فتركت في نفسه ألماً يعصر قلبه، فهي لا تسمع ولا تُجيب نداءه، ثم يتخلص إلى مدح ممدوحه فجولته على أعدائه تفوق صولة الأسد في غِيله.

لَـمَّـا وَزَنْـتُ بِـكَ الـدُّنْـيَـا فَـمِـلْـتَ بِـهَـا
وَبِـالْـوَرَى قَـلَّ عِـنْـدِي كَـثْـرَةُ الْـعَـدَدِ(١)
مَـا دَارَ فِـي خَـلَـدِ الأَيَّـامِ لِـي فَـرَحٌ
أبـا عُـبَـادَةَ حَـتـى دُرْتَ فِـي خَـلَـدِي(٢)
مَـلْـكٌ إِذَا امْـتَـلأَتْ مـالاً خَـزَائِـنُـهُ
أَذَاقَـهَـا طَـعْـمَ ثُـكْـلِ الْامِّ لِـلْـوَلَـدِ(٣)
مَـاضِـي الْـجَـنَـانِ يُـرِيـهِ الْـحَـزْمُ قَـبْـلَ غَـدٍ
بِـقَـلْـبِـهِ مَـا تَـرَى عَـيْـنَـاهُ بَـعْـدَ غَـدِ(٤)
مَـا ذَا الْـبَـهَـاءُ وَلَا ذَا الـنُّـورُ مِـنْ بَـشَـرٍ
وَلا الـسَّـمـاحُ الَّـذِي فِـيـهِ سَـمـاحُ يَـدِ(٥)
أَيُّ الأَكُـفِّ تُـبَـارِي الـغَـيْـثَ مَـا اتَّـفَـقَـا
حَـتـى إِذَا ٱفْـتَـرَقَـا عـادَتْ وَلَـمْ يَـعُـدِ(٦)

---

(١) الورى: البشر. لقد راح الشاعر يزين فضل ممدوحه ورجاحة عقله وسمو خلقه في كفّه ثم وضع سائر البشر في الكفّة الأخرى فرجحت كفّة الممدوح، ممّا يكشف على أن العدد لا يُقاس بكثرته قياساً على رجاحة الفرد المميّز.

(٢) الخلد: القلب والروع والبال. يروي الشاعر قصته مع الزمن المعاند وهو دائم البحث عن إبعاد شبح الفقر وسوء الطالع حتى عثر على من بيده السرور والسعادة إنه أبو عبادة ممدوحه.

(٣) الثكل: فقد الأم ولدها. إن الممدوح ملك يقسو قلبه على أمواله فينفقها في سبيل رفعة شأنه، فإذا بأمواله كأم فقدت ولدها، والفارق بينهما أن الأم تبكي ولدها بألم، بينما يعطي الممدوح من أمواله وهو في غاية الرضى والسرور يطفح في قلبه وأساريره.

(٤) الماضي: النافذ. الجنان: القلب. الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة. يصف الشاعر ممدوحه، إنه ثابت القلب في الملمات يأخذ الأمور بجدّ فلا يتوانى ويهمل أمور دولته، وهو يتمتّع بحدْس وإلهام وبعد نظر فيستبق الأحداث بالتصدّي لها قبل وقوعها؛ وذلك من أسباب نجاحه في إدارة شؤون مملكته.

(٥) ومن مغالاة الشاعر أن جعل جمال خلْق وخُلُق ممدوحه لا يُوجد في البشر، وحتى كرمه ليس كرماً عادياً وإنما هو بحر طام وغيث عميم يُفيضه على مريديه وأتباعه.

(٦) تُباري: تُجاريه وتُسابقه. من خلال سؤال الشاعر يريد أن يُعلن عن حقيقة ممدوحه، =

قَـدْ كُـنْـتُ أَحْـسَـبُ أَنَّ الـمَـجْـدَ مِـنْ مُـضَـرٍ
حَـتَّـى تَـبَـحْـتَـرَ فَـهْـوَ الْـيَـوْمَ مِـنْ أُدَدِ[١]
قَـوْمٌ إِذَا أَمْـطَـرَتْ مَـوْتـاً سُـيُـوفُـهُـمُ
حَـسِـبْـتَـهَـا سُـحُـباً جـادَتْ عَـلَـى بَـلَـدِ[٢]
لَـمْ أُجْـرِ غـايَـةَ فِـكْـرِي مِـنْـكَ فِـي صِـفَـةٍ
إِلَّا وَجَـدْتُ مَـدَاهَـا غَـايَـةَ الأَبَـدِ[٣]

كن كالموت لا يرثي لباك

يمدحه أيضاً:

[الوافر]

أُحَـادٌ أَمْ سُـدَاسٌ فِـي أُحَـادِ
لُـيَـيْـلَـتُـنَـا الـمَـنُـوطَـةُ بـالـتَّـنَـادِي[٤]

= فالغيث لا يقدر على مجاراة ممدوحه، ذلك أن فيض الأمطار مرتبط بزمن محدّد ثم ينقطع لتدور دورة الزمن، بينما غيث ممدوحه لا يرتبط بزمن معين أو بظرف محدّد، بل إنه لا ينقطع أصلاً باستمرار.

(١) هو مضر بن نزار بن معد بن عدنان: جدّ جاهلي، من سلسلة النسب النبوي. تبحتر: انتسب إلى بُحتر، أحد أفخاذ طيّئ من عرب اليمن. أدد هو أدد بن زيد بن يشجب بن عريب الكهلاني، من قحطان؛ جدّ جاهلي، بنوه طيّئ والأشعريّون ومذحج ومرّة. ينوّه الشاعر بمكانة الملك في بني قومه، إنه سبب علوّ شأنهم، فأدد موئل الأمجاد بفضل ابنها البارّ سادت قبائل قحطان، حتى إنها انتزعت المجد من مضر سيادتها.

(٢) يمدح الشاعر قبيلة الملك فيهم أبطال مغاوير سيوف تمطر دماء أعدائهم، فإذا ببلد عدوهم تغطّيه سحابة الموت لكثرة إمعانهم بأعدائهم تقتيلاً.

(٣) ومن مغالاة الشاعر في مخاطبته ممدوحه، أنه يُديم البحث في مزاياه وفضائله، فلم يقع لديه إلّا وجد الغاية في أكمل صورها وأبعد مداها.

(٤) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٤٧، ٦٥٤، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١، ٩٨، ١٥٦. المنوطة: المرتبطة. التنادي: يوم القيامة والحشر. يلجأ الشاعر في مطلع قصيدته إلى الإبهام والغموض للفت نظر ممدوحه إلى عبقريته لدى ذكره الأعداد، والليلة هذه تذكر بيوم الحشر، فثمّة أحداث عظام ستحدث.